

موقف الإمام الحسن

رأينا موقف أنصار الإمام الحسن من صلحه مع معاوية وما لاقاه منهم من عنف وكيف أن أكثرهم لقبوه (بمذل المؤمنين) .

وسيرى القارئ في الكتاب الرابع الخاص بالإمام الحسين في الجزء الخاص « برحلة الإمام الحسين رضي الله عنه في الميزان » المقارنة بين موقف الإمام الحسن والإمام الحسين ، وأرى في هذا المقام أن أبادر بالمقارنة بين ظروف كل من الإمامين .

فقد رأى^(١) كثير من الناس أن الشتم الهاشمي الذي اعتاد أن يكون دائماً في الشواهد . كان أليق بموقف الحسين عليه السلام منه بموقف الحسن رضي الله عنه .

وهذه هي النظرة البدائية التي تفقد العمق ولا تستوعب الدقة .

فما كان الحسن في سائر مواقفه إلا الهاشمي الشامخ المجد الذي واكب في مجادته مثل أبيه وأخيه معاً . فإذا هم جميعاً أمثلة المصلحين المبدئين في التاريخ . ولكل بعد ذلك ، جهاده ورسالته ومواقفه التي يستمليها من صميم ظروفه القائمة بين يديه ، وكلها الصور البكر في الجهاد . وفي المجد . وفي الانتصار للحق المهتضم المنصوب .

(١) صلح الحسن = للشيخ راضي آل ياسين .

وكان احتساء الموت ، قتلا . في ظرف الحسين ، والاحتفاظ بالحياة صلحاً ، في ظرف الحسن ، بما مهدها به ، عن طريق هاتين الوسيلتين لضمان حياة المبدأ . وللبرهنة على إيدانة الخصوم هو الحل المنطقي الذي لا معدى عنه لمشاكل كل من الطرفين ، وهو الوسيلة الفضلى إلى الله تعالى . وإن لم يكن الوسيلة إلى الدنيا ، وهو الظفر الحقيقي المتدرج مع التاريخ ، وإن كان فيه الحرمان حالاً وخسارة السلطان ظاهراً .

وكلتا التضحيتين : تضحية الحسين بالنفس ، وتضحية الحسن بالسلطان هما قصارى ما يسمو إليه الزعماء المبدئين في مواقفهم الإنسانية المجاهدة .

وكانت عوامل الزمن التي صاحبت كلا من الحسن والحسين في زعامته هي التي خلقت لكل منهما ظرفاً من أصدقائه وظرفاً من أعدائه ، لا يشبه ظرف أخيه منهما ، فكان من طبيعة اختلاف الطرفين اختلاف شكل الجهادين واختلاف النهايتين أخيراً .

ولتكلم أولاً : عن ظروفهما من أنصارهما ومثلت خيانة الأصدقاء الكوفيين بالنسبة إلى الحسين عليه السلام خطوته الموقفة في سبيل التمهد لنجاحه المطرد في التاريخ ، ولكنها كانت بالنسبة إلى أخيه الحسن عليه السلام ، يوم مسكن والمدائن ، عقبته الكوؤود التي مثلت ميدانه عن تطبيق عملية الجهاد ، ذلك لأن حوادث نقض بيعة الحسين كانت قد سبقت تعبثته للحرب ، فجاء جيشه الصغير يوم وقف به للقتال منخولاً من كل شائبة تضييره كجيش إمام له أهدافه المثلى .

أما الجيش الذي أخذ مواقعه من صفوف الحسن ، ثم فرثلثاه ونفرت به الدسائس المعادية ، فإذا هورهن القوضى والانتقاض والثورة ، فذلك هو الجيش الذي خسره الحسن كل أمل من نجاح هذه الحرب .

ومن هنا ظهر أن هؤلاء الأصدقاء الذين بايعوا الحسن وصحبوه إلى معسكراته كمجاهدين ، ثم نكثوا بيعتهم وفروا إلى عدوهم أو ثاروا بإمامهم كانوا شراً من أولئك الذين نكثوا بيعة الحسين قبل أن يواجهوه ، وهكذا مهد الحسين لحربه ، بعد أن تخلت حوادث الخيانة أنصاره ، جيشاً من أروع جيوش التاريخ إخلاصاً في غايته وتفادياً في طاعته وإن قل عدداً .

أما الحسن فلم يعد بإمكانه أن يستبق حتى من شيعته المخلصين أنصاراً يطمئن إلى جمعهم وتوجيه حركاتهم ، لأن القوضى التي انتشرت عدواها في جنوده كانت قد أفقدت الموقف قابلية الاستمرار على العمل ، وأى فرق أعظم من هذا الفرق بين طرفيها من أنصارها ؟

وأما ظروفهما من أعدائهما هو الفرق بين معاوية ويزيد ، والفرق بينهما هو ما طفح به التاريخ من قصة البلادة السافرة في الابن والدهاء في الأب ، ومن وراء ذلك الخصومة التاريخية التي أكل عليها الدهر وشرب بين بني هاشم وبني أمية ، ولم تكن الأموية يوماً من الأيام كفوفاً للهاشمية ، وإنما كانت عدوتها التي تحافها على سلطانها ، وتناوئها دون هوادة .

ولا تنس الاختلاف أيضاً بين هذين الأخوين في الطبع والمزاج والسيرة . كان الحسن صاحب أناة ورفق ، كرهاً إليه الحرب وسفك الدماء وحملاذ

على أن يؤثر السلم ويترك خلافة تكلفه مثل ما كلفت أباه من أهوال الحرب .
 وكان الحسين كآبيه ، صارماً في الحق لا يحب الرفق ولا الهوادة ولا
 التسامح فيما لا ينبغي التسامح فيه ، وكان صارماً على نفسه وعلى غيره يتجرع
 مرارة الصبر على ما لا يجب ، رأى الوفاء لأخيه حقاً عليه ، فوق له وأطاعه
 كما أطاع أباه من قبله ، كما كان الحسين صاحب فطنة وحسن النظر
 في الأمور .

ولقد كان لهاتين السياستين آثار ظاهرة ، فلم يؤذ الشيعة في أنفسهم ولا في
 أموالهم ما عاش الحسن كانوا يعارضون في لين وينكرون في رفق ، وكان معاوية
 وولاته يسمعون منهم ويكفون عنهم وربما استصلحوهم بالقول والعمل ، فلما
 صار أمر الشيعة إلى الحسين عفت المعارضة وكادت تصبح ثورة في الكوفة ،
 فلقى معاوية وولاته بالشدة بل بالإسراف في الشدة حتى تجاوزوا في قمعها
 كل معقول .

وكانت نتيجة هذه الشدة أن عظم أمر الشيعة في الأعوام العشرة الأخيرة من
 حكم معاوية ، وانتشرت دعوتهم أي انتشار في شرق الدولة الإسلامية وفي جنوب
 بلاد العرب ، ومات معاوية حين مات ، وكثير من الناس وعامة أهل العراق
 بنوع خاص يرون بغض بني أمية وحب أهل البيت .

ولم يكن من الاحتمال البعيد ما قدره الحسن بن علي احتمالاً قريباً فيما
 لو اشتبك مع معاوية في حرب يائسة تجر بذيوها أكبر كارثة في الإسلام وأن
 تبعد بمكائدها آخر نسمة تنبض بفكرة التشيع لأهل البيت ، ولمعاوية قابلياته

المتأزة لتنفيذه هذه الخطة وتصفية الحساب الطويل في التاريخ وهو هو في
عدائه الصريح لعلى وأولاده وأنصارهم .

أما الحسين فقد كنى مثل هذا الاحتمال حين كان خصمه الغلام المترف
الذى لا يحسن قيادة المشاكل ولا تعبئة التيارات ، ولا حياكة الخطط ثم هو
لا يعنيه من الأمر إلا أن يكون الملك ذا الخزائن حتى ولو واجهه الأخطل
الشاعر بقوله :

ودينك حقاً كديس الحمار بل أنت أكفر من هرمز

وكنى الحسين هذا الاحتمال بما ضمنه سيف الإرهاب الذى طارد الشيعة
تحت كل حجر ومدرفى الكوفة وما إليها والذى حفظ في غيابات السجون
والمهاجر وكهوف الجبال سبلاً من السادة الذين كانوا يحملون مبادئ أهل
البيت وكانوا يؤمنون على إيصال هذه المبادئ إلى الأجيال بعدهم .

فراى أن يمضى في تصميمه مطمئناً على خطته وأهدافه وعلى مستقبلهما من
أعدائه أما الحسن فلم يكن له أن يطمئن على مخلفاته المعنوية طمأنينة أخيه
وفى أعدائه معاوية .

وقد أفاد الحسين من غلطات معاوية في غاراته على بلاد الله الآمنة
المطمئنة ، وفى موقفه من شروط صلح الحسن وفى قتله الحسن بالسهم وفى بيعته
لابنه يزيد وفى أشياء كثيرة أخرى بما زاد حركته فى وجه الأموية قوة ومعنوية
وانطباقاً صريحاً على وجهة النظر الإسلامى فى الرأى العام ، وأفاد إلى ذلك ،

من مزالق الشاب (خليفة معاوية) فكانت كلها عوامل تتصرف معه في تنفيذ أهدافه .

وكانت ظروفه من أعدائه وظروفه من أصدقائه تتفقان معاً على تأييد حركته وإنجاز مهمته ، والأخذ به إلى النصر الممنهج الذي فاز به في الله وفي التاريخ .

أما الحسن فقد أعيتته ظروفه من أصدقائه فحالت بينه وبين الشهادة وظروفه من أعدائه فحالت بينه وبين مناجزتهم الحرب التي كانت معناها الحكم على مبادئه بالإعدام ، لذلك رأى لزاماً أن يطور طريقة جهادة وأن يفتتح ميدانه من طريق الصلح .

وما كانت الألفام التي وضعها الحسن في الشروط التي أخذها على معاوية إلا وسائله الدقيقة التي حكمت على معاوية وحزبه بالفشل الذريع في التاريخ . ويتفق رأيي مع رأي زميلي الكبير الأستاذ حسن كامل الملطايبي في موقف الإمام الحسن وفي مقارنته بالإمام الحسين فنقول : إن الحسن رضى الله عنه سلم الأمر لمعاوية ولم يفعل الإمام الحسين مثله مع يزيد ولعل اختلاف الموقنين يثير شكوكاً في أفهام بعض الناس والمنصف المتأمل يرى أن كلا منهما كان مجتهداً في رأيه ومحققاً في موقفه .

أما عذر الإمام الحسن في التنازل فقد تبين أن أنصار معاوية كانوا من أهل الدنيا تلعب الأموال بأهوائهم وقد عرف معاوية علتهم فنثر عليهم الذهب والفضة نثراً فوجدوا في يد معاوية ما يشتهون ، وكان معاوية صالحاً لأهل الدنيا . وكان

أهل الدنيا صالحين لمعاوية ، وقد قال عمرو بن العاص لا يصلح لهذا الأمر إلا رجل له ضرسان يأكل بأحدهما ويطعم بالآخر ، وما قاله معاوية : « لأستميلن بالدنيا ثقة على ولأقسمن فيهم الأموال حتى تغلب دنياى آخرته » ، فلم يكن في أهل العراق أحد في قلبه مرض إلا طمع في معاوية .
 أما أنصار الإمام الحسن فهم أنصار أبيه وقد وصفهم أبوه فقال : « أيها الناس المجتمعة أبدانهم ، المختلفة أهواؤهم » وقليل منهم من كان معه قلباً وقلباً .

وقد طلب الإمام الحسن خلافة الراشدين وخاف الله كأيبه في أموال المسلمين فلم ينثر على جنوده الأموال نثراً بل أراد أن يقاتل الناس معه انتصاراً للحق وطلباً للآخرة فلم يتحمس لذلك منهم إلا أهل الصدق والوفاء والدين وقليل ما هم ، ولقد خذله في موقف الجدل ابن عمه عبيد الله بن عباس والتمسه الناس ليصلى بهم الصبح فوجدوه في عسكر معاوية فلا رده دينة وورعه ، ولا رده عصبية لبني هاشم ، فلم يبق إلى جوار خليفة الحق وابن عمه أمير المؤمنين الحسن عليه السلام وغلبت دنياه على دينه وخمدت حمية العصبية فكان منه ذلك الموقف المخزى ، وقد ذهب المال الذي أغراه وتبقى لاصقاً به عار الموقف ، وكان للحق أنصار أوفياء في صف الإمام الحسن لكنه في قلة من أمثال قيس بن سعد ، وعدى بن حاتم ، لكن معاوية كان معه عشرات الألوف يأتمرون بأمره ويتهنون بنبيه ، لذلك لم يكن عجباً أن ترى جند الإمام الحسن اعتدلوا عليه ونهبوا عسكره وشتموه على مسمع الناس في سقاهاة الحمقى

الذين لا يكادون يفقهون قولاً .

وقد عارض الشيعة معارضة قوية صلح الإمام الحسن بعد موته وشجعتهم معارضة الإمام الحسين لسياسة معاوية كما شجعتهم قسوة ولاية معاوية في معاملتهم وبخاصة ما كان منها على يد زياد وابنه عبد الله وآلت الخلافة لمعاوية عن رضا وصلح من الإمام الحسن .
ولكن يزيد آلت إليه الخلافة عن معارضة من الإمام الحسين وسائر أبناء المهاجرين .

وكان الصراع بين الحسين ويزيد أول تجربة من قبيلها بعد عهد النبوة وعهد الخلفاء الأولين . وقد بذل فيها الحسين روحه وطبيعة الشهادة موكلة ببذل الحياة لما هو أدوم من الحياة فهو أبو الشهداء وبنوع شهادة متعاقبة لا يقربها ينبوع في تاريخ البشر أجمعين .

ويرى ابن أبي الحديد أن كلا من الإمامين الحسن والحسين عليهما السلام كان مجتهداً فيما رآه ، فسلم الإمام الحسن الأمر إلى معاوية ونازع الإمام الحسين يزيد في الخلافة وعمل كل في موقفه بموجب اجتهاده وما غلب على ظنونهما من المصلحة .

وقد كان تمكن الإمام الحسن من المصلحة الحاضرة أكثر من تمكن الإمام الحسين في حاله الحاضرة لأن جند الحسن كانوا حوله وهم كما روى مائة ألف سيف ولم يكن مع الإمام الحسين من يحيط به ويسير بمسيره إلى العراق إلا دون مائة فارس ، ولكن ظنهما في عاقبة الأمر ومستقبل الحال كان مختلفاً .

فكان الإمام الحسن يظن خذلان أصحابه عند اللقاء والحرب .
 وكان الإمام الحسين يظن نصرة أصحابه عند اللقاء والحرب .
 فلذلك أحجم أحدهما وأقدم الآخر .

ويقول ابن أبي الحديد : وقد صح في زمن النبي صلى الله عليه وسلم أنه لما
 شاور في أمر أسرى بدر أبا بكر أشار ألا يقتلهم ، وأشار عمر بقتلهم فدحهما
 رسول الله صلى الله عليه وسلم جميعاً .

ويتضح شعار الحسين عليه السلام حين طلبوا إليه أن يبيع ، فقال لقائد
 الجيش الذي أرسلوه لقتاله « أبا الموت تخوفني » .

العودة إلى المدينة

أقام الإمام الحسن بالكوفة أياماً ثم عزم رضى الله عنه على مغادرتها إلى
 مدينة جده عليه الصلاة والسلام ، وودعه جمهرة من المسلمين وفي مقدمتهم
 الصحابي ظبيان بن عمارة التيمي والمسيب بن نجبة الفزاري ، فقال الإمام
 الحسن : « الحمد لله الغالب على أمره لو أجمع الناس جميعاً على ألا يكون
 ما هو كائن ما استطاعوا » وتكلم المسيب وعرض إخلاصه الصميم لأهل
 البيت .

فقال له الحسين رضى الله عنه : « يا مسيب نحن نعلم أنك تحبنا » .

وقال الحسن رضى الله عنه : « سمعت أبا يقول سمعت رسول الله صلى الله
 عليه وسلم يقول من أحب قوماً كان معهم » .

ثم عرض له المسيب وظيفان بالرجوع فقال : « ليس إلى ذلك سبيل » .
فلما كان الغد خرج من الكوفة وشيعة الناس بالبكاء وكان معه
سيد الشهداء الحسين بن علي رضي الله عنه وأهل بيته ، ولم تكن إقامته فيها
بعد الصلح إلا أياماً قلائل .

فلما صار بدير هند (الحيرة) نظر إلى الكوفة وقال :

ولا عن قلى فارقت دار معاشرى

هم المانعون حوزتى وذمارى^(١)

وفى كلام الإمام التسليم لقضاء الله وقدره والحزن على ضياع حقه الشرعى ،
وقد ندب أهل الكوفة حظهم التمس بنقل الخلافة ومعها بيت المال من بلدهم
إلى دمشق .

وفى يثرب مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم استقبله أهلها أحسن استقبال .
على أن معاوية لما سافر إليها ورأى بعينه تكريم الناس وحفاوتهم بالإمام
وإكبارهم له ساءه ذلك ، فاستدعى أبا الأسود الدؤلى والضحاك بن قيس الفهمى
فاستشارهم فى أمر الحسن وطلب منهم الرأى فى الطريقة التى يوصمه بها ليتخذ
من ذلك وسيلة إلى الحط من شأنه والتقليل من أهميته أمام الجماهير ، واختلفت
المشورة فأشار أبو الأسود^(٢) بعدم التعرض للإمام الحسن وكانت مشورته

(١) ابن أبى الحديد .

(٢) وأبو الأسود الدؤلى هو الذى قال :

أحب محمداً حباً شديداً وعيماً وحمزة والوصياً
هوى أعطيته منذ استدارت رعى الإسلام لم يعدل سويماً =

الصواب ، فأى نقص أو عيب في الإمام حتى يوصمه به وهو المطهر من كل رجس ونقص كما نطق بذلك الذكر الحكيم ، وأشار عليه الضحاك بن قيس بأن ينال من الإمام ويتناول عليه ، واستجاب معاوية فعلا لرأى الضحاك ، وهاجم الإمام .

وقدر رد عليه الإمام الحسن قائلا :

« أيها الناس من عرفني فقد عرفني ، ومن لم يعرفني فأنا الحسن بن علي ابن أبي طالب أنا ابن نبي الله ، أنا ابن من جعلت له الأرض مسجداً وطهوراً ، أنا ابن السراج المنير أنا ابن البشير النذير ، أنا ابن خاتم النبيين وسيد المرسلين وإمام المتقين ورسول رب العالمين أنا ابن من بعث إلى الجن والإنس أنا ابن من بعث رحمة للعالمين » .

واسترسل فقال : « أنا ابن مستجاب الدعوة ، أنا ابن الشفيع المطاع أنا ابن أول من ينفض رأسه من التراب ويقرع باب الجنة ، أنا ابن من قاتلت الملائكة معه ولم تقاتل مع نبي قبله أنا ابن من ذلت له قريش رغماً » .

وغضب معاوية وكان حاضراً فقال : « أما أنك تحدث نفسك بالخلافة »

فأجابه الإمام الحسن عمن هو أهل بالخلافة قائلا :

« أما الخلافة فلمن عمل بكتاب الله وسنته . وليست الخلافة لمن خالف كتاب الله وعطل السنة ، إنما مثل ذلك مثل رجل أصاب ملكاً فتمتع به وكأنه

= بنو عم النبي وأقربوه أحب الناس كلهم إليا
فإن يك حبهم رشداً أصبه ولت بمخطئ إن كان غيا

انقطع عنه وبقيت تبعاته عليه .

واستمر الإمام في تعريف نفسه فقال :

« أنا ابن من ساد قريشاً شاباً وكهلاً ، أنا ابن من ساد الورى كرمياً ونبلاً ، أنا ابن من ساد أهل الدنيا بالوجود الصادق والفرع الباسق والفضل السابق ، أنا ابن من رضاه الله تعالى » وقد ضاق به معاوية ذرعاً وأوعز إلى القوى المنحرفة المعادية لأهل البيت بالتطاول على ربحانة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولكن الإمام في كل هذه المناظرات هو الظافر المنتصر .

رفض الإمام مصاهرة الأمويين :

في رواية^(١) أن معاوية أراد أن يصاهر بنى هاشم ليحرز بذلك الشرف والمجد فكتب إلى عامله على المدينة مروان بن الحكم أن يخاطب ليزيد أم كلثوم بنت عبد الله بن جعفر ، على حكم أبيها في الصداق وقضاء دينه بالغاً ما بلغ على صلح الحيين بنى هاشم وبنى أمية ، وكان معاوية يبغي من ذلك أن يرضى عبد الله بن جعفر وعبد الله بن عباس والحسين بن علي فأم كلثوم ابنة زينب بنت علي ، فلو ارتبطت بينه وبين حفيدة الإمام الأسباب لرضى رؤساء بنى هاشم وقضى على الأحقاد ، فبعث مروان خلف عبد الله فلما حضر عنده فاوضه في أمر كريمته فأجابته عبد الله :

(١) هناك رواية أخرى بأن محاولة المصاهرة تمت بعد وفاة الحسن مباشرة وأن الإمام الحسين

إن أمرنا بيد الحسن بن علي فاخطب منه .

فأقبل مروان إلى الإمام فخطب منه ابنة عبد الله .

فقال عليه السلام : اجمع من أردت ، فانطلق مروان فجمع الهاشميين

والأمويين في صعيد واحد وقام فيهم خطيباً قائلاً :

« أما بعد : فإن أمير المؤمنين معاوية أمرني أن أخطب أم كلثوم بنت

عبد الله بن جعفر ليزيد بن معاوية على حكم أبيها في الصداق ، وقضاء دينه

بالغاً ما بلغ وعلى صلح الحيين بنى هاشم وبني أمية ويزيد بن معاوية كقولهم ،

ولعمري لمن يغبطكم بيزيد أكثر ممن يغبط يزيد بكم ، فيزيد ممن يستحق

بوجهه الغمام » .

فرد الإمام عليه بما يأتي :

١ - أما ما ذكرت من حكم أبيها في الصداق . فإننا لم نكن نرغب عن

سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم في أهله وبيته .

٢ - أما قضاء دين أبيها فنتي قضت نساؤنا بمهورهن ديون آبائهن .

٣ - وأما صلح الحيين . فنحن عاديناكم لله وفي الله فلا نصالحكم للدنيا .

٤ - وأما قولك يزيد كفؤ من لا كفؤ له ؛ فأكفأوه اليوم أكفأوه

بالأمس لم يزد سلطانه .

٥ - وأما قولك : من يغبطنا بيزيد أكثر ممن يغبط بنا ، فإن كانت

الخلافة قادت النبوة فنحن المغبوطون ، وإن كانت النبوة قادت الخلافة ، فهو

المغبوط بنا .

٦ - وأما قولك : إن الغمام يستسقى بوجه يزيد ، فإن ذلك لم يكن إلا لآل رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وفي نهاية تفنيد مزاعم مروان حطيم الإمام الحسن أماله قائلاً : « وقد رأينا أن نزوجها (یعنی أم كلثوم) من ابن عمها القاسم محمد بن جعفر ، وقد زوجتها منه وجعلت مهرها ضيعتي التي لي بالمدينة ، وقد أعطاني بها معاوية عشرة آلاف دينار » .

وأخبر مروان معاوية بالحادث فلما علم قال متأثراً : « خطبنا إليهم فلم يفعلوا ولو خطبوا إلينا لما رددناهم » .

وفي رواية أخرى عن معاوية بن خديج قال : أرسلني معاوية بن أبي سفيان إلى الحسن بن علي أخطبت علي يزيد بنتاً له - أو أختاً له - فأتيته فذكرت له يزيد .

فقال : إنا قوم لا نزوج نساءنا حتى نستأمرهن فأتيتها فذكرت لها يزيد ، فقالت : والله لا يكون ذلك حتى يسير فينا صاحبك كما سار فرعون في بني إسرائيل يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم .

فرجعت إلى الحسن فقلت له : أرسلني إلى من تسمى أمير المؤمنين فرعون . قال عليه السلام : إياك يا معاوية وبغضنا ، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« لا يبغضنا ولا يحسدنا أحد إلا زيد يوم القيامة عن الحوض بسياط من نار » .

لقد كان الإمام يعلم بدوافع معاوية ، وبما يبغيه من تشييد أسرته فكان يسعى لإحباط الوسائل التي يتخذها ويفسد عليه أمره ، وقد بلغه أنه قال : « لا ينبغي أن يكون الهاشمي غير جواد ، ولا الأموي غير حلیم ولا الزبيری غیر شجاع ، ولا المخزومي غير تياہ » .

وعرف عليه السلام أن غرض معاوية بذلك إنما هو تحطيم هذه الأسر وتشييد أسرته ، فرد عليه مقالته وقال « قاتله الله ، أراد أن يوجد بني هاشم فينفد ما بأيديهم ويحلّم بنو أمية فيتحببوا إلى الناس ويتشجع آل الزبير فيفنونوا وبيته بنومخزوم فيبغضهم الناس » .

وهكذا كان عليه السلام يندد بأعمال معاوية ويكشف الستار عن سوء نيته غير مكترث بسلطانه .

خرق معاوية شروط الصلح

بينت سابقاً اتفاقية الصلح التي تمت بين الإمام ومعاوية ، كما لخصت الاتفاقية في النهاية في شروط خمسة ، والآآن نرى مدى التزام الجانبين بها .
 أولاً : فأما عن تسليم الأمر إلى معاوية ، فكان هذا هو الشرط الوحيد الذي لمعاوية على الحسن ، وكان الشرط الذي حظى بالوفاء من شروط هذه الاتفاقية ولم يحدث من الإمام بعد توقيع الصلح أية محاولة لتقوض شرطه هذا ولا التحدث بذلك ، ولا الرضا بالحديث عنه ، وكما بينا جاءه أنصاره بعد أن أعلن معاوية التخلف عن شروطه ، فعرضوا عليه ، وقد رجع إلى المدينة ،

أنفسهم وأتباعهم للجهاد بين يديه ، ووعده الكوفيون منهم بإخلاء الكوفة من عاملها الأموي وضمنوا له السلاح لإعادة الكرة على الشام ، فلم تهزه العواصف ولا قلقلته حوافر الأنصار المتوثبين .

ولنأخذ ما قاله سليمان بن صرد كنموذج لما قاله أصحابه ، قال وهو كما يقول ابن قتيبة ، سيد العراق ورئيسهم : « وزعم (يعني معاوية) على رؤس الناس ما قد سمعت : إني كنت شرطت لقوم شروطاً ووعدتهم ومنيتهم أماني ... فإن كل ما هنالك تحت قدمي هاتين ، والله ما عنى بذلك إلا نقض ما بينك وبينه فأعد الحرب خدعة وأذن لي أشخص إلى الكوفة ، فأخرج عاملها منها وأظهر فيها خلعه ، وأبذ إليه على سواء ، إن الله لا يهدي كيد الخائنين » .

وسكت ابن صرد وتكلم كل من حضر مجلسه بمثل مقالته .

وكان جواب الإمام الأخير لهم : « ليكن كل رجل منكم حلساً من أحلاس بيته ما دام معاوية حياً ، فإن يهلك معاوية ، ونحن وأتم أحياء سألنا الله العزيمه على رشدنا ، والمعونة على أمرنا ، وألا يكلنا إلى أنفسنا ، فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون » .

ثانياً : أما الشرط الثاني وهو أن يكون الأمر للحسن من بعد معاوية .. فقد أجمع المؤرخون على أن العهد الذي أعطاه معاوية للحسن في شروط الصلح هو أن لا يعهد بالأمر من بعده إلى أحد ، ومعنى ذلك رجوع الأمر من بعده إلى صاحبه الشرعي وهو الحسن بن علي فإن لم يكن فللحسين أخيه تمثيلاً مع مفهوم الشرط ، وأجمع المؤرخون ، بعد ذلك ، على أن معاوية نقض هذا

العهد علناً ، وعهد من بعده إلى ابنه يزيد ، وبذلك ارتكب بهذا العمل الجرمي ، أكبر إثم في دينه ، وسأبين في نهاية هذا الفصل الوسيلة التي اتبعت مع الإمام الحسن حتى يخلو الأمر ليزيد بن معاوية .

ثالثاً : أما عن الشرط الثالث ، وهو ترك سب أمير المؤمنين وألا يذكر علماً إلا بخير ، فيقول ابن الأثير : « إن معاوية كان إذا قنت سب علماً وابن عباس والحسن والحسين والأشتر » والذي حدث أن معاوية أخذ بعد إبرام الصلح في سب أمير المؤمنين ، وبالغ في انتقاصه ولم يمنعه عنه انتقال الإمام إلى جوار ربه ، وكان الباعث إلى ذلك أن معاوية علم أنه لا يستقيم له أمر إلا بانتقاص الإمام والنيل منه ، وبهذه الطريقة يريد معاوية أن يشيد ملكه ، ويقرر في أنفس الناس أن بني هاشم لاحظ لهم في هذا الأمر وأن سيدهم الذي به يصلون وبفخره يفخرون ، هذا حاله ، وهذا مقداره ، فيكون من يتمي إليه ويدل به عن الأمر أبعد ، وعن الوصول إليه أشحط وأنزح^(١) .

وظن معاوية أن الناس إذا كرهوا وجه السوء في بدأة الرؤية ، فإنه حين يعود ويشمل ويتكرر تذهب عنه الوحشة ويتوارى منه القبح ، وظن معاوية أنها ستكون عادة مألوفة وسنة شريفة ، فإذا غابت عن الناس يوماً اشتاقوا لها وحنوا إليها ، وقيل : إنه عزل سعيد بن العاص عن إمارة يثرب لأنه امتنع عن سب الإمام ، وقيل : إن معاوية كان يقول في آخر خطبته : « اللهم إن أبا تراب (يعني علماً) ألحد في دينك وصد عن سبيلك فالعنه لغناً وبيلاً وعذبه عذاباً

(١) غلط الشام عن أبي الحديد .

أيماً . وكتب بذلك إلى الآفاق ؛ فكانت هذه الكلمات يشاد بها على المنابر .

وذكر الحافظ السيوطي أنه كان في أيام بني أمية أكثر من سبعين ألف منبر يلحن عليها ابن أبي طالب وذلك بما سانه لهم معاوية ، وفي ذلك يقول العلامة أحمد حفظي مصطفى الشافعي :

وقد حكى الشيخ السيوطي أنه قد كان فيما جعلوه سنة
سبعون ألف منبر وعشرة من فوقهن يلحنون حيدره
وهذه في جنبها العظام تصغر بل توجه اللوائم

وقد كان مجهود معاوية في هذا السبيل ما طفحت به السير والتواريخ وهو أول من سنَّ الجهر بسب صحابة الرسول وأول من فتح هذا الباب على مصراعيه . ولكن هل نجح معاوية ، لقد أخطأ معاوية الرأي وجاوز الحلم الذي قالوا إنه وسم به وعادت البدعة بغير ما ظن ورأى ، فإنها كانت تحدث في نفوس الناس وجمة غيظ واستغفارة ندم يقطن لها الخطيب القطين فيعثر ويتلثم وتغيب عن غير القطن فتنتلق اللعنة حارقة صارخة من القلوب .

وقيل إن معاوية قدم الخطبة على صلاة العيد لأن الناس كانوا يكرهون سماع اللحن فكانوا إذا أدوا الصلاة خرجوا من المسجد فألزمهم بتقديم الخطبة لسماع المسبة ، ولكنهم كانوا إذا فرغوا من سماع الخطبة اجتمعوا - ولا سيما الطالبون - بعد كل صلاة وصبوا لعناتهم على بني أمية جميعاً .

وخاض خطباء البلدان فسبوا على بن أبي طالب على المنابر بأمر الأمير وجاوز

خطباء بنى أمية حد النية والمروءة فى الجهر بها ، ونطق بها عبد العزيز بن مروان
 فىمن نطق على منبر المسجد الجامع بفسطاط مصر ، ولكنه كان فطناً فقلق
 ورجف وتعثر وتلعثم كلما هم بها ، فأحس القلوب تغضب ورأى الوجوه تشيح
 وسمع الأفواه تزفر . ولكنه كان تقليداً مرسوماً ولم ينهه أحد عنه ولو وجد من
 يكفه لكف .

واستمرت هذه العادة سارية إلى أن تولى عمر بن عبد العزيز الخلافة ،
 ولنستمع أولاً إلى ما قاله الخليفة الزاهد فقد قال : « كان أبى إذا خطب فنال
 من على رضى الله عنه تلجلج فقلت : يا أبت ، إنك تمضى فى خطبتك فإذا
 أتيت على ذكر على عرفت منك تقصيراً . قال : أوفطنت إلى ذلك ؟ قلت
 نعم . فقال : يا بنى إن الذين حولنا لا يعلمون من على ما نعلم تفرقوا عنا
 إلى أولاده » .

ولكن عمر بن عبد العزيز كان قد غلبه الصبا والنسيان فحين عاد إلى المدينة
 لطلب العلم خاض فى البدعة ونزع إليها منازع أهله - ولم يكن يعرف فى نفسه
 حباً لعلى بن أبى طالب حتى دله عليه راهب قريش - وفى ذلك يقول الخليفة
 الزاهد : « كنت بالمدينة أتعلم العلم وكنت أترم عبيد الله بن عبد الله بن عتبة
 ابن مسعود فبلغه عنى شئ من ذلك فأثبته يوماً وهو يصلى فأطال الصلاة فقعدت
 أنتظر فراغه فلما فرغ من صلاته التفت إلى فقال لى : متى علمت أن الله
 غضب على أهل بدر وبيعة الرضوان بعد أن رضى عنهم ؟ قلت : لم أسمع
 ذلك - قال : فما الذى بلغنى عنك فى على ؟ فقلت : معذرة إلى الله وإليك

وتركت ما كنت عليه ا .

ورأى الخليفة عمر بن عبد العزيز أن يححو البدعة ويدفع الناس عن سفاسف الأمور فكان أول ما أمر به أن منع الناس عن السب وكتب بالمنع إلى جميع عماله وولاته وأمر أن يجعل يدل اللعن في خطبة الجمعة والأعياد قوله تعالى : (ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم) وقوله تعالى : (إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون) .

ولما أبطل سب على أقبل عليه كثير عزه ينشده ويقول :

وليت فلم نشتم علياً ولم تخف برياً ولم تتبع مقالة مجرم
تكلمت بالحق المبين وإنما تبين آيات الهسدى بالتكلم
وصدقت معروف الذى قلت بالذى فعلت فأضحى راضياً كل مسلم
وبذلك يكون عمر بن عبد العزيز قد سجل مكرمة لا تنسى مدى الأجيال ،

وقد مدحه الشاعر السيد الشريف الرضى رحمه الله على ذلك فقال :

يا ابن عبد العزيز لو بكت اله
غير أنى أقول إنك قد طب
أنت نزهتنا عن السب والقذ
ولو أنى رأيت قبرك لأستحيي
وقليل إن لو بذلت دماء الـ
ين قفى من أمية لبكيتك
ت وإن لم يطب ولم يرك بيتك
ف فلو أمكن الجزاء جزيتك
ت من أن أرى وما حبيتك
بدن ضرباً عن الذرى وسقيتك

دير سمعان فيك مأوى أبى حنفه ص بودى لى آويتك

دير سمعان لا أغبك غيث . خير ميت من آل مروان ميتك^(١)

وقد أثار سب الإمام على سخط الأخيار من المسلمين ولأن سب المسلم من أفحش المحرمات فقد أثر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « سباب المسلم فسوق » وقال أيضاً : « لا يكون المؤمن لعاناً » .

(١) لم يكف بنو أمية بسب على بل إنهم حرموا أن يذكر اسمه بين أيديهم ، وكان زريق مولى على بن أبى طالب قد حفظ القرآن والفرائض ، ولكنه لم يرزق شيئاً من بيت المال فوجد على عمر فقال يا أمير المؤمنين : إني رجل من أهل المدينة ، وقد حفظت القرآن والفرائض وليس لي عطاء في الديوان ، فقال عمر : ولم يرحمك الله ؟ من أى الناس أنت ؟ فقال زريق : رجل من مولى بنى هاشم .

فقال عمر : مولى من ؟ فسكت زريق وهم واحد من الناس أن يجيب فقال عمر لزريق : إليك أسألك ، وصاح به : أتكنمى من أنت ؟ فقال زريق بصوت خافت كأنه نجوى : أنا مولى على بن أبى طالب (قد خاف أن يجهر) فقال عمر رافعاً صوته [وأنا مولى على - أتكنمى ولاء على] .

حدثني سعيد بن المسيب عن سعد بن أبى وقاص أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « من كنت مولاه فعل مولاه » .

وقال عمر بن مرقى : كنت بالشام وعمر بن عبد العزيز يعطى الناس فتقدمت إليه فقال لي : من أنت ؟ قلت : من قريش - قال من أى قريش قلت : من بنى هاشم - قال : من أيهم فسكت فقال : من أى بنى هاشم ؟ قلت مولى على بن أبى طالب .

فوضع يده على صدره وقال : أيا مولى على بن أبى طالب حدثني عدة أنهم سمعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : من كنت مولاه فعل مولاه ، ثم قال : يا مزاحم كم تعطى أمثاله ؟ قال مزاحم : مائة درهم أو مائتين فقال : أعطه خمسين ديناراً لولائه لعلى بن أبى طالب عليه السلام ، ثم قال له عمر : الحق ببلدك فسيأتيك مثل نظرائك .

فقد رأى الصحابي زيد بن أرقم المغيرة بن شعبة يعلن سب أمير المؤمنين ،
فانبرى له منكرأ سبه للإمام قائلاً : « يا مغيرة ألم تعلم أن رسول الله صلى الله
عليه وسلم نهى عن سب الأموات فلم تسب علياً وقد مات ؟ » (١)

ومن الذين غضبوا لسب الإمام سعد بن أبي وقاص ، وقد قال لمعاوية :
« يا معاوية والله لأن يكون في خصلة واحدة من خصال كانت لعلي أحب إليّ
من أن يكون له ما طلعت عليه الشمس ، والله لأن أكون صهراً لرسول الله
صلى الله عليه وسلم ولي من الولد ما لعلي أحب إليّ من أن يكون لي ما طلعت عليه
الشمس والله لأن يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لي ما قال له فيه يوم
خير » لأعطين الراية غداً رجلاً يحبه الله ورسوله ويحب الله ورسوله ، ليس بفرار
يفتح الله على يديه » أحب إلى من أن يكون لي ما طلعت عليه الشمس ، والله
لأن يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لي ما قال في غزوة تبوك : « ألا
ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي » أحب إلى من
أن يكون لي ما طلعت عليه الشمس .

ولنستمع إلى المحاورة التي جرت بين معاوية وابن عباس فهي تكشف عن
الخطط التي سلكها معاوية في إخفاء مآثر الإمام وفي حجب مناقبه وفضائله :
ذكر المؤرخون أن معاوية بعد عام الصلح حج بيت الله الحرام فاجتاز على
جماعة من قريش فقاموا إليه سوى ابن عباس فبادره معاوية قائلاً :
- يا بن عباس ما منعك من القيام كما قام أصحابك إلا لموجدة على

- بقتالى إياكم يوم صفين ؟ يا ابن عباس إن ابن عمى عثمان قتل مظلوماً .
- فعمربن الخطاب قد قتل مظلوماً فسلم الأمر إلى ولده وهذا ابنه - وأشار إلى عبد الله بن عمر -
- إن عمر قتله مشرك .
- فمن قتل عثمان ؟
- قتله المسلمون .
- فذلك أدحض لحجتك إن كان المسلمون قتلوه وخذلوه فليس إلا بحق .
- فإننا كتبنا إلى الآفاق نهى عن ذكر مناقب على وأهل بيته فكف لسانك يا ابن عباس .
- فتنهانا عن قراءة القرآن ؟
- لا .
- فتنهانا عن تأويله ؟
- نعم .
- فأيهما أوجب علينا قراءته أو العمل به ؟
- العمل به .
- فكيف نعمل به حتى نعلم ما عنى الله بما أنزل علينا ؟
- سل عن ذلك من تأويله على غير ما تتأوله أنت وأهل بيتك .
- إنما أنزل القرآن على أهل بيتى أفأسأل عنه آل أبى سفيان وآل أبى معيط ؟
- فاقراءوا القرآن ولا ترووا شيئاً مما أنزل الله فيكم ، وما قال رسول الله

وارووا ما سوى ذلك .

- قال الله تعالى : (يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون) .

- يا بن عباس اكفنى نفسك وكف عني لسانك ، وإن كنت فاعلاً فليكن سراً ولا تسمعه أحدًا علانية^(١) .

ومن أشد المنكرين لسب الإمام الشاعر كثير بن كثير السهمي ،
وفى ذلك يقول :

لعن الله من يسب علياً	وحسيناً من سوقة وإمام
أيسب المطهرون جدوداً	والكرام الأخوال والأعمام
يأمن الطير والحمام ولا	يأمن آل الرسول عند المقام
طبت بيتاً وطاب أهلك أهلاً	أهل بيت النبي والإسلام
رحمة الله والسلام عليهم	كلما قام قائم بسلام ^(٢)

ودخل الأحنف بن قيس على معاوية ، فلما استقر به المجلس قام وغدأ ثم خطباً ، فافتتح خطابه بسب أمير المؤمنين ، وثقل ذلك على الأحنف فالتفت إلى معاوية وقد اسودَّ الفضاء في وجهه مما داخله من الحزن قائلاً : « إن هذا القائل لو يعلم أن رضاك في لعن المرسلين لعنهم ، قاتق الله يا معاوية ودع عنك علياً فلقد لقي ربه ، وأفرد بقبوره وخلى بعمله كان والله مبروراً

(١) شرح النهج ابن أبي الحديد .

(٢) شرح ابن أبي الحديد .

في سبقه - أى إلى الإسلام - طاهر الثوب ميمون النقيبة عظيم المصيبة .
فالتاع معاوية من هذا التفرغ وتألم من هذا الثناء العاطر على الإمام على ،
فالتفت إلى الأحنف قائلاً : « يا أحنف لقد أغضبت العين على القذى وقلت
ما ترى ، أما والله لتصعدن المنبر وتلعن علياً كرهاً أو طوعاً » ، فقال له
الأحنف : « إن تعفى فهو خير لك ، وإن تجبرنى على ذلك فوالله لا تجرى
شفتاى به أبداً » .

ولم يعتن معاوية بكلامه وقال له : « قم فاصعد المنبر » .

- أما والله لأنصفنك في القول والفعل .

- وما أنت قائل إن أنصفتنى ؟

- أصعد المنبر فأحمد الله وأثنى عليه وأصلى على نبيه محمد صلى الله

عليه وسلم ، ثم أقول : أيها الناس ، إن أمير المؤمنين معاوية أمر أن ألعن علياً ،

وإن علياً ومعاوية اختلفا واقتتلا ، فادعوا كل واحد منهما أنه بغى عليه

وعلى فثته ، فإذا دعوت فأمنوا رحمكم الله ، ثم أقول : اللهم العن أنت

وملائكتك وأنبيائك وجميع خلقك الباغى منهما على صاحبه والعن الفئة الباغية ،

اللهم العنهم لعناً كثيراً - أمنوا رحمكم الله - يا معاوية ، لا أزيد على هذا

ولا أنقص حرفاً ولو كان فيه ذهاب روجي .

فراوغ معاوية وقال : « إذا تعفيك يا أبا بجر »^(١) .

وماذا كانت النتيجة أراد معاوية تحطيم شخصية الإمام على ، وأراد الله

سبحانه وتعالى غير ذلك ، وها هو ذا قبر أمير المؤمنين كعبة للوافدين من المسلمين ،
 وها هو ذا معاوية وقبره محطم استولى عليه الهوان ، ويقول أحد الشعراء في ذلك :

هذا ضريحك لو بصرت ببؤسه لأسال مدمعك المصير الأسود

كتل من التراب المهين بخرية سكر الذباب بها فراح يعربد

خفيت معالمها على زوارها فكأنها في مجهل لا يقصد

ومشى بها ركب البلى فجدارها عاريكاد من الضراعة يسجد

والقبة السماء نكص طرفها فبكل جزء للقضاء بها يد

تهمى السحاب من خلال شقوقها

والريح في جنباتها تتردد

حتى المصلى مظلم فكأنه منذ كان لم يجتر به متعبد

رابعاً : من شروط الصلح التي اشترطها الإمام على معاوية أن يعطيه

خراج دار الجرد ليرفه بذلك على الفقراء والمعوزين من شيعته ، ولكن معاوية

لم يف بذلك .

خامساً : وكان الشرط الخامس هو العهد بالأمان العام وعدم التعرض

لأنصار عليّ على الخصوص وأنصار ابنه بسوء أو مكروه ، ولكن معاوية

جعل من أهدافه القضاء على هذه الطبقة المؤمنة التي آمنت بحق أهل البيت ،

وقد لاقى أنصار أهل البيت من الأذى والاضطهاد ما تنوء بحمله الجبال ، وكان

أشدّهم بلاءً وأعظمهم محنة وشقاءً أهل الكوفة ، فقد استعمل عليهم معاوية

زياداً بعد هلاك المغيرة ، وكان بهم عالماً فأشاع فيهم القتل والإعدام وشردهم

وطردهم^(١) .

وقيل : إن معاوية أرسل إلى جميع عماله وولاته رسالة جاء فيها « انظروا إلى من قامت عليه البيعة أنه يحب علياً وأهل بيته فامحوه من الديوان وأسقطوا عطاءه ورزقه » .

وفى ذلك يقول الباقرضى الله عنه : « وقتلت شيعةنا بكل بلدة وقطعت الأيدي والأرجل على الظئنة ، وكان من يذكر بحبنا والانقطاع إلينا سجن أو نهب ماله أو هدمت داره »^(٢) ، وأصبحت مودة أهل البيت كفرةً وإلحاداً ومروقاً من الدين ، وفى ذلك يقول الكمي :

يشيرون بالأيدى إلى قلوبهم الأحاب هذا والمشرون أخاب
فظائفة قد كفرتى بحبكم وطائفة قالوا مسيء ومذنب
يعيبونى من حبههم وضلالهم على حبكم بل يسخرون وأعجب
وقالوا ترى هواه ورأيه بذلك أدعى فيهم وألقب
ويقول عبد الله بن كثير السهمى ، على من عابه على موالاته أهل البيت بقوله :

إن امرأ أمت معايبه حب النبي لغير ذى ذنب
وبنى أبى حسن ووالدهم من طاب فى الأرحام والصلب
أبعد ذنباً أن أحبهم بل حبههم كفارة الذنب^(٣)

(٢) شرح ابن أبى حديد .

(١) شرح ابن أبى الحديد .

(٣) البيان والتبيين .

أما بلاء أهل البيت وما تعرضوا له من الاضطهاد والقتل والاعتراب ، وهو بلاء تحملوه بالصبر الجميل مرضاة لله تعالى ، فإنى أرجو أن يوفقني الله سبحانه وتعالى أن يكون هذا موضوع الجزء الثانى من هذا الكتاب إن شاء الله .

على أن جميع ما بذله معاوية لكى يجعل الخلافة والمملك وراثه فى ذريته ، وقد بذل جميع جهوده ومساغيه فى تحقيق ذلك .

ومن ذلك أنه بعد أن قبل نصيحة زياد التى نصحه فيها بالتؤدة والأي عمل وأن يريث مدة أخرى بعد ما بدأ المحاولة بالشام وعارضه الكثيرون ، وكان مما قاله الأحنف لمعاوية : « يا أمير المؤمنين ، إنا قد فررنا عنك قريش فوجدناك أكرمها زنداً وأشدّها عقداً وأوفاهها عهداً ، وقد علمت أنك لم تفتح العراق عنوة ولم تظهر عليها قعصاً ، ولكنك أعطيت الحسن بن على من عهود الله ما قد علمت ليكون له الأمر من بعدك ، فإن تف فأنت أهل الوفاء ، وإن تغدر تعلم والله أن وراء الحسن خيولاً جياداً وأذرعاً شداداً وسيوفاً حداداً ، إن تدن له شبراً من غدر تجد وراءه باعاً من نصر ، وإنك تعلم أن أهل العراق ما أحبوك منذ أبغضوك ولا أبغضوا علياً وحسنًا منذ أحبوهما ، وما نزل عليهم فى ذلك غير من السماء وأن السيوف التى شروها عليك مع على يوم صفين لعلى عواتقهم ، والقلوب التى أبغضوك بها بين جوانحهم ، وأيم الله إن الحسن لأحب إلى أهل العراق من على » .

وقال الأحنف بن قيس أيضاً : « يا أمير المؤمنين أنت أعلمنا بليله ونهاره

وبسره وعلانيته ، فإن كنت تعلم أنه خير لك فوله واستخلفه ، وإن كنت تعلم أنه شر لك فلا تزوده الدنيا وأنت صائر إلى الآخرة ، فإنه ليس لك من الآخرة إلى ما طاب ، واعلم أن لا حجة لك عند الله إن قدمت يزيد على الحسن والحسين وأنت تعلم من هما وإلى ما هما ، وإنما علينا أن نقول : سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير .

وكما قلت إزاء هذه المعارضة ، رأى معاوية أن يترىث ، ولكن إلى حين ، لأن الفكرة قد ملكت عليه فواده ، وكان يعلم أن خيرة الصحابة لن يبايعوا يزيد فرأى أن ينطلق إلى المدينة ليفاوضهم بمنهم مرة ويتوعدهم مرة أخرى لعله يستطيع أن يطويهم بدهائه أو يشتريهم بماله ، ودخل المدينة وبعث إلى عبد الله ابن عباس وعبد الله بن جعفر وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير ، فلما اكتمل اجتماعهم قال لهم : « الحمد لله الذى أمرنا بحمده ووعدنا عليه ثوابه نحمده كثيراً كما أنعم علينا كثيراً ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله ، أما بعد فإني قد كبرت سنن ووهن عظمى وقرب أجلى وأوشكت أن أدعى فأجيب ، وقد رأيت أن أخلف عليهم بعدى يزيد ورأيت لكم رضاً وأنتم خيار قريش ولم يمنعني أن أحضر حسناً وحسيناً إلا أنهما أولاد أبيهما ، على حسن رأى فيهما وشديد محبتي لهما فردوا على أمير المؤمنين خيراً يرحمكم الله » وقد عارضه الجميع ، وكان مما قاله عبد الله بن عباس : « إن الله جل ثناؤه وتقدست أسماؤه اختار محمداً صلى الله عليه وسلم لرسالته واختاره لوحيه وشرّفه على خلقه فأشرف الناس

من تشرف به وأولاهم بالأمر أحقهم به ، وإنما على الأمة التسليم لنبينا إذا اختاره الله لها فإنه إنما اختار محمداً بعلمه وهو العليم الخبير .

وقال عبد الله بن جعفر : « الحمد لله أهل الحمد ومنتهاه ، نحمده على إلهامنا حمده ونرغب إليه في تأدية حقه ، وأشهد أن لا إله إلا الله واحداً صمداً ، لم يتخذ صاحبة ولا ولداً ، وأن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم ، أما بعد فإن هذه الخلافة إن أخذ فيها بسنة الشيخين أبي بكر وعمر فأى الناس أفضل وأكمل وأحق بهذا الأمر من آل الرسول ، وأيم الله لو لوله بعد نبيهم لوضعوا الأمر موضعه لحقه وصدقته ولأطع الله وعصى الشيطان ، وما اختلف في الأمة سيفان ، فاتق الله يا معاوية فإنك قد صرت راعياً ونحن رعية فانظر لرعيته إنك مشول عنها غداً ، وأما ما ذكرت من ابني عمي وتركتك أن تحضرهما ، فوالله ما أصبت الحق ولا يجوز لك ذلك إلا بهما ، وإنك لتعلم أنهما معدن العلم والكرم فقتل أودع وأستغفر الله لي ولكم » .

ومما قاله ابن الزبير : « اتق الله يا معاوية وأنصف من نفسك ، فإن هذا عبد الله بن عباس ابن عم رسول الله ، وهذا عبد الله بن جعفر ذو الجناحين ابن عم رسول الله ، وأنا عبد الله بن الزبير بن عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعلى خلف حسناً وحسيناً وأنت تعلم من هما وما فاتق الله يا معاوية وأنت الحاكم بيننا وبين نفسك » .

وقال عبد الله بن عمر : « إن هذه الخلافة ليست بهرقلية ولا كسروية يتوارثها الأبناء عن الآباء ، ولو كان كذلك كنت القائم بها بعد أبي ، فوالله

ما أدخلني مع الستة من أصحاب الشورى إلا على أن الخلافة ليست شرطاً مشروطاً وإنما هي في قريش خاصة لمن كان لها أهلاً ممن ارتضاه المسلمون لأنفسهم من كان أتقى وأرضى ، فإن كنت تريد الفتیان من قريش فلعمري إن يزيد من فتياها واعلم أنه لا يغني عنك من الله شيئاً .

ولنستمع إلى رد معاوية قال : « قد قلت وقلتم ، وإنه قد ذهبت الآباء وبقيت الأبناء ، فابني أحب إليّ من أبنائهم ، وإنما كان هذا الأمر لبني عبد مناف لأنهم أهل رسول الله ، فلما مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولى الناس أبا بكر وعمر من غير معدن الملك ولا الخلافة ، غير أنهما سارا بسيرة جميلة ، ثم رجع الملك إلى بني عبد مناف ، فلا يزال فيهم إلى يوم القيامة ، وقد أخرجك الله يا بن الزبير وأنت يا بن عمر منها ، فأما ابنا عمي هذان ، فليس بخارجين من الرأي إن شاء الله . »

وأخيراً وجد أنه لن يظفر بما يريد ما دام الإمام حسن حياً وعلم أيضاً أنه لا يمكن إنجاز مهمته إلا بالتفكير في القضاء عليه ووجد في « جعدة بنت الأشعث » الأداة التي تمكنه من تنفيذ خطته فأبوها الأشعث بن قيس كان ممن أرغم الإمام علياً على قبول التحكيم وإنه ليطمع في أن يجد في الابنة عوناً كما وجد في الأب عوناً وقيل إنها وضعت له السم في اللبن وكان الإمام صائماً فتناول منه جرعة فلما وصل إلى جوفه تقطعت أمعاؤه ، فقال وقد أحس بألم شديد : « إنا لله وإنا إليه راجعون الحمد لله على لقاء محمد سيد المرسلين

وأبى سيد الوصيين وأمى سيدة نساء العالمين وعمى جعفر الطيار وحمزة سيد الشهداء .

بهذا يتفق أكثر المؤرخين أن الإمام مات مسموماً ، وذهب فريق آخر إلى أن يزيد هو الذى سم الإمام .

على أن ابن خلدون ينفي عن معاوية هذه الجريمة ويقول : « وما يتقل من أن معاوية قد دس السم إلى الإمام الحسن على يد زوجته جعدة بنت الأشعث فهو من أحاديث الشيعة وحاشا لمعاوية ذلك » .

كما ذكر بعض المستشرقين روايات أخرى عن موته فقيل إنه مات بالسل عندما بلغ من العمر خمساً وأربعين سنة ، كما ذكر المؤرخ العالم أحمد بن سهل البلخي : « إن الإمام كان يطوف في البيت الحرام فطعنه شخص لظهر قدمه بزج مسموم فتوفى على أثر ذلك » ، وذكر الدكتور حسن إبراهيم أن بعض المؤرخين ذهب إلى أن الإمام مات حتف أنفه بعد رجوعه من العراق إلى يثرب بأربعين يوماً ، وفي مقاتل الطالبين قيل لأبى إسحاق : متى ذل الناس ؟ قال : حيث مات الحسن وادعى زياد وقتل حجر بن عدى .

وكان الحسن رضى الله عنه شرط على معاوية في شروط الصلح ألا يعهد إلى أحد بالخلافة بعده وأن تكون الخلافة له من بعده . قال أبو الفرج الأصفهاني : وأراد معاوية البيعة لابنه يزيد فلم يكن شئ أثقل عليه من أمر الحسن وسعد ابن أبى وقاص فدس إليهما السم فماتا منه . أرسل إلى ابنة الأشعث أنى مزوجك بيزيد ابني على أن تسمى الحسن وبعث إليها بمائة ألف درهم ولم يزوجها منه

فخلف عليها رجل من آل طلحة فأولدها ، فكان إذا وقع بينهم وبين بطون قريش كلام غير وهم وقالوا : يا بني مسممة الأزواج ، وكان ذلك بعد ما مضى على إمارة معاوية عشر سنين وفي الاستيعاب قال ابن عبد البر : سم الحسن ابن علي ، سمته امرأته بنت الأشعث بن قيس الكندي .

وهناك شبه إجماع على أن الإمام الحسن مات بالسم ، فالشيعة يرون أن معاوية قد دس إليه من سمه ليخلوله ولابنه وجه الخلافة ، وكذلك مؤرخو الجماعة من أهل السنة ، يرون ذلك ويكثرون من روايته ، ويستشهد بعض المؤرخين على ذلك بأن الموت بالسم قد عرف في أيام معاوية بشكل غريب ومريب ، فقد مات الأشرفيما يقول المؤرخون مسموماً في طريقه إلى ولاية مصر فخلصت مصر لمعاوية ، وقال معاوية وعمرو : « إن لله جنداً من عسل » . ومات عبد الرحمن بن خالد بن الوليد مسموماً بحمص ، في خبر طويل ، وكذلك مات الحسن .

ويتحدث رجال التاريخ بأن الحسن قال لبعض عائديه في مرضه الأخير : « لقد سقيت السم مرات ، ولكني لم أسق قط سمّاً أشدّ عليّ من هذا الذي سقيته هذه المرة ، ولقد لفظت آنفاً قطعة من كبدي » .

وفي رواية أخرى : أنه لما عرف يزيد من والده معاوية اتجاهه في أن يقلب الخلافة إلى ملك ويجعله وراثياً يتعاقبه ولد عن والده ، صادف ذلك هوى في نفس يزيد لأنه يتوق إليه ويتمناه ، واختمرت الفكرة في نفس يزيد واستبد به حب الملك عقب مقابلة المغيرة بن شعبة وترغيبه في أن يكون ولي عهد أبيه ،

فعل هذا ثالث دهاة العرب لما علم أن معاوية يريد أن يعزله عن ولاية البصرة .

وقصد يزيد إلى أبيه وقال له : يا أبت ما أراك صنعت شيئاً لبنيك من بعدك ، وما دبرت لهم أمراً ، وعهدى بك داهية العجم والعرب ورجل السياسة والتجارب .

فابتسم له أبوه وقال : يا بني لم أغفل عن أمر ولكني مرتبط بعهد كتابي بيني وبين الحسن بن عليّ على أن تكون له الخلافة بعدي إذا أنا قبضت قبله فانظر لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً .

وانصرف يزيد يفكر ويدبر فهداه تفكيره إلى أن يتخلص من العقبة التي تعترض ولايته للملك بعد أبيه فأرسل يزيد من يفاوض زوجته (جعدة بنت الأشعث) في أن تسم الحسن مقابل مائة ألف درهم وأن يتزوجها يزيد بعد موت الحسن ، وكانت امرأة لعوباً تحب المال وتفنى في السلطان فأعمى الله بصرها وبصيرتها وأخذت على رسول يزيد اليهود والميثاق أن يني بما وعد ثم جعلت تدبر أمرها وتضع خططها ، وكانت جعدة قد علمت أن الحسن تزوج امرأة اسمها (خولة بنت منظور) وأنها تعلقت به تعلقاً شديداً حتى لقد بات ليلة على السطح فشددت خمارها برجله وجعلت الطرف الآخر بمخلاها ، فقام من الليل ، فقال : ما هذا : قالت خفت أن تقوم من الليل بوسنك فتسقط وأنت نائم فأكون أشأم سخلة على العرب وقد بينت ذلك من قبل ، ويقال إنه رضى الله عنه كان يقوم كثيراً ثم يمشى وهو نائم فأحبها وأقام

عندها سبعة أيام لا يذهب إلى سواها علمت جعدة هذه القصة فلما جاء الحسن بكت في حضرته بكاءً مرّاً وأظهرت من ضروب الشوق والحب والإخلاص واللذعة ما جعله يقبل على الطعام والشراب الذي قدمته إليه بشغف كثير ورغبة قوية ، فلما أصبح الصباح أحس المأى في أمعائه أخذ يزداد رويداً رويداً حتى خيل إليه أنه يلفظ كبده « . وقيل إنه التفت إلى « جعدة » فقال لها : « يا عدوة الله قتلتني قتلك الله ، والله لا تصيبين مني خلفاً . ولقد غرك (يعنى معاوية) وسخر منك يخزيك الله ويخزيه » .

ولقد أخزأها الله فعلاً فأصبحت مضرب الأمثال للسوء والخزى والإثم والخيانة فقد أصبحت عاراً لذريتها وأبنائها من غير الإمام فقد وصموا بأبناء مسممة الأزواج ، ولقد سخر منها معاوية فلم يف لها بزواج يزيد حيث طلبت منه ذلك فقد ردها بسخرية واستهزاء قائلاً : « إنا نحب حياة يزيد ولولا ذلك لوفينا لك بتزويجه » .

ولكن كثيراً من المؤرخين يقولون إن الإمام مات مسموماً وإن معاوية وليس يزيد ، كما بينت سابقاً ، هو الذي رتب وفكر ودبر : وإنه هو الذي دس إليه فقتله . ويقول عميد الأدب العربي الدكتور طه حسين تعليقا على قصة السم (ولست أقطع بأن معاوية قد دس إلى الحسن من سمه ولكني لا أقطع كذلك بأنه لم يفعل) .

أما المستشرق « رويت م . روتلدس » و« لامنس » فقد ذكرا أن الإمام الحسن مات بالسم ، وهذا القول من الغرابة بمكان ولم يذهب إليه أحد

من المؤرخين فقد أجمعوا أنه مات مسموماً ولم يصب بداء السل ، وقد كتب المستشرقون كما بينت سابقاً جميع بحوثهم على هذا الطراز في الغلو عن التحقيق وفي الاعتماد على الاقتراء والكذب .

وفي كتاب الصفوة ذكر يعقوب بن سفيان في تاريخه أن جعدة هي التي سمته وقال الشاعر في ذلك :

تعز فكم لك من سلوة تفرج عنك غليل الحزن
 بموت النبي وقتل الوصي وقتل الحسين وسم الحسن
 وكانت آخر كلماته وهو يعانى من المرض ما قاله للصحابي : « جنادة
 ابن أبي أمية » قال الإمام رضى الله عنه : « يا جنادة ، استعد لسفرك وحصل
 زادك قبل حلول أجلك واعلم أنك تطلب الدنيا والموت يطلبك ، ولا تحمل
 هم يومك الذى لم يأت على يومك الذى أنت فيه ، واعلم أنك لا تكسب من
 المال شيئاً فوق قوتك إلا كنت فيه خازناً لغيرك ، واعلم أن الدنيا فى حلالها
 حساب ، وفى حرامها عقاب ، وفى الشبهات عتاب ، فأنزل الدنيا بمنزلة
 الميتة خذ منها ما يكفيك فإن كان حلالاً كنت قد زهدت فيه ، وإن كان
 حراماً لم يكن فيه وزر فأخذت منه كما أخذت من الميتة ، وإن كان العقاب
 فالعقاب يسير ، واعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً واعمل لآخرتك كأنك
 تموت غداً ، وإذا أردت عزاً بلا عشيرة وهيبة بلا سلطان فاخرج من ذل
 معصية الله إلى عز طاعة الله عز وجل ، وإذا نازعتك إلى صحبة الرجال حاجة
 فاصحب من إذا صحبته زانك ، وإذا أخذت منه صانك ، وإذا أردت

منه معونة أعانك ، وإن قلت صدق قولك ، وإن صلت شد صوتك ، وإن مددت يدك بفضل مدها ، وإن بدت منك ثلثة سدها ، وإن رأى منك حسنة عدها ، وإن سأله أعطاك ، وإن سكت عنه ابتدأك ، وإن نزلت بك إحدى الملمات واساك ، من لا تأتيك منه البوائق ، ولا تختلف عليك منه الطرائق ولا يخذلك عند الحقائق وإن تنازعتما منقسماً آثرك .

وعن الحسن بن أبي العلى عن جعفر بن محمد قال الحسن بن على لأهل بيته إني أموت بالسم كما مات رسول الله فقال له أهل بيته ومن الذى يسمك قال جاريتي أو امرأتى فقالوا له : أخرجها من ملكك عليها لعنة الله - فقال هيات من إخراجها ومنيتى على يدها مالى منها محيص ولو أخرجتها ما يقتلنى غيرها كان قضاء مقضياً وأمرأ واجباً من الله فما ذهبت الأيام حتى بعث معاوية إلى امرأته قال : فقال الحسن : هل عندك من شربة لبن فقالت نعم وفيه ذلك السم بعث به معاوية فلما شربه وجد مس السم فى جسده فقال يا عدوة الله قتلتنى قاتلك الله أما والله لا تصيبين منى خلفاً ولا تنالين من الفاسق عدو الله اللعين خيراً أبداً .

وفى اللحظات الأخيرة دخل عليه أخوه سيد الشهداء فلما نظر إلى ما يعاينه من ألم اغرورقت عيناه بالدموع .

فنظر إليه الحسن ، فقال له : ما يبكيك يا أبا عبد الله .
- أبكى لما صنع بك .

واستشف الإمام الحسن بما سيجرى على أخيه من بعده فهان عليه ما هو

فيه وأرختي عينيه بالدموع وقال بنبرات مرتعشة حزينة : « إن الذي أوتى إلى سم أقتل به ، ولكن لا يوم كيومك يا أبا عبد الله ، وقد ازدلف إليك ثلاثون ألفاً يدعون أنهم من أمة جدنا محمد صلى الله عليه وسلم ويتحلون دين الإسلام فيجتمعون على قتلك وسفك دمك وانتهاك حرمتك وسبي ذراريك ونسائك وانتهاج ثقلك » .

(وفي حلية الأولياء) روى بسنده عن عمير بن إسحاق قال : دخلت أنا ورجل على الحسن بن علي عليهما السلام نعوده فقال يا فلان سلني قال لا والله لا نسألك حتى يعافيك الله ثم نسألك . قال ثم دخل ثم خرج إلينا فقال : سلني قبل ألا تسألني فقال بل يعافيك الله ثم أسألك . قال لقد ألقيت طائفة من كبدي وإني سقيت السم مراراً فلم أسق مثل هذه المرة ، ثم دخلت عليه من الغد وهو موجود بنفسه والحسين عليه السلام عند رأسه وقال : يا أخى من تهم قال : لم لتقتله ؟ قال : نعم - قال : إن يكن الذي أظن فالله أشد بأساً وأشد تنكيلاً - وإلا يكن فما أحب أن يقتل بي برىء .

واشتد الوجع بالإمام فأخذ يعانى آلام الاحتضار فعلم أنه لم يبق من حياته العالية إلا بضع دقائق فالتفت إلى أهله قائلاً : « أخرجوني إلى صحن الدار ، أنظر في ملكوت السماء » فحملوه إلى صحن الدار ورفع رأسه إلى السماء وأخذ يناجى ربه ويتضرع إليه قائلاً : « اللهم إني أحسب عندك نفسى فإنها أعز الأنفس على لم أصب بمثلها اللهم آنس صرعتى وآنس فى القبر وحدتى » . ثم حضر فى ذهنه غدر معاوية به ونكته لليهود فقال : « لقد حاقت

شربته ، والله ما وئى بما وعد ولا صدق فيما قال .
 وأخذ يتلو أى الذكر الحكيم ويبتهل إلى الله ويناجيه حتى قاضت
 نفسه الزكية .

وصية الحسن إلى أخيه الحسين :

عن ابن عباس : هذا ما أوصى به الحسن بن علي إلى أخيه الحسين ،
 أوصى أنه يشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأنه يعبده حق عبادته
 لا شريك له في الملك ولا ولى له من الذل وأنه خلق كل شيء فقدره تقديراً ،
 وأنه أولى من عبده وأحق من حمد من أطاعه ورشد ومن عصاه غوى ومن تاب
 إليه اهتدى فإني أوصيك يا حسين بمن خلفت من أهلى وولدى وأهل بيتك
 أن تصفح عن مسيئتهم وتقبل من محسنهم وتكون لهم خلفاً ووالداً وأن تدفنى
 مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإني أحق به وبيته فإن أبوا عليك فأنشدك
 الله بالقرابة التي قرب الله عز وجل منك والرحم الماسة من رسول الله صلى الله
 عليه وسلم أن لا تهريق من أمرى محجمة من دم حتى تلتقى رسول الله صلى الله
 عليه وسلم .

وروى الحاكم في المستدرک أنه لما توفى أقام نساء بنى هاشم النوح عليه شهراً
 وعن أبى جعفر قال : مكث الناس يبكون على الحسن بن علي وعظمت
 الأسواق .

وروى أنه لما توفى الإمام الحسن دعا الحسين ابن عباس وعبد الرحمن بن

جعفر وعلى بن عبد الله بن عباس فأعانوه على غسله وحنطوه وألبسوه أكفانه وخرجوا به إلى المسجد فصلوا عليه .

الخلافة بشأن دفنه بجانب جده عليه الصلاة والسلام :

وقال المفيد : لما مضى لسبيله غسله الحسين رضى الله عنه وكفنه وحمله على سريره ولم يشك مروان ومن معه من بنى أمية أنهم سيدفنونه عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فتجمعوا لذلك ، فلما توجه به الحسين رضى الله عنه إلى قبر جده رسول الله صلى الله عليه وسلم ليحدد به عهداً أقبلوا إليهم في جمعهم ، وقيل والله أعلم ، إن السيدة أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها عارضت في دفنه مع جده عليه الصلاة والسلام .

وروى أبو الفرج بسنده أن الإمام الحسن عليه السلام كان قد أرسل إلى السيدة عائشة رضى الله عنها أن تأذن له أن يدفن مع النبي صلى الله عليه وسلم ، فقالت نعم ما كان بقي إلا موضع قبر واحد ، فلما سمعت بذلك بنو أمية قيل إن مروان قال : يارب أيدفن عثمان في أقصى المدينة ويدفن الحسن مع الرسول عليه الصلاة والسلام لا يكون ذلك أبداً وأنا أحمل السيف ، وكادت الفتنة أن تقع بين بنى هاشم وبنى أمية .

ويقول ابن سعد عن الواقدي : لما احتضر الحسن قال ادفوني عند أبي ، يعنى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأراد الحسين رضى الله عنه أن يدفنه في حجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقامت بنو أمية ومروان بن الحكم وسعيد

ابن العاص ، وكان والياً على المدينة فمنعوه وقامت بنوهاشم لتقاتلهم .
وقيل إنه لما بلغ أبا هريرة أن مروان منع أن يدفن الإمام الحسن مع جده
صلى الله عليه وسلم قال : « والله ما هو إلا ظلم ، يمنع الحسن أن يدفن مع
رسول الله صلى الله عليه وسلم إنه لابن رسول الله » ، وقيل إنه قال : « أرايتم
لومات ابن لموسى أما كان يدفن مع أبيه » .

وانطلقت إلى الإمام الحسين وناشده الله وقال له : « أليس قد قال أخوك ،
إن خفت أن يكون قتال فردوني إلى مقبرة المسلمين »

وجاشت لتأبى دفنه عند جده تثير على أشياعه رهج الحرب
أدتنى لها الويلات مستوجب النوى إليه وتقصى عنه مستوجب (القرب)
وكان موقف بنى أمية من تشييع جنازة الإمام الحسن موقفاً مزرياً ،
فلم يشهد جنازته أحد منهم إلا سعيد بن العاص ، مع أن الإمام الحسن
سالمهم وحقن دماءهم ودماء المسلمين ، ولكن أهل المدينة خرجوا جميعاً
لتشييعه حتى لو طرحت في البقيع إبرة ما وقعت إلا على رأس إنسان ، كما
قال ثعلبة بن أبي مالك .

وقال الحسين رضى الله عنه : « والله لولا عهد الحسن بحقن الدماء ، وأن
لا أهرىق في أمره محجمة دم لعلمتم كيف تأخذ سيوف الله منكم مأخذها ،
وقد نقضتم العهد بيننا وبينكم وأبطلتم ما اشترطنا عليكم لأنفسنا » ومضوا بالحسن
رضى الله عنه فدفنوه بالبقيع عند جدته فاطمة بنت أسد .

وذكر الزمخشري في ربيع الأبرار ، وابن عبد البر في الاستيعاب : أنه

قيل : لما بلغ معاوية موت الحسن رضى الله عنه سجد ، وسجد من حوله ، وكبر
وكبر وراعه .

وقد وصف الفضل بن العباس شاة معاوية فقال :

أصبح اليوم ابن هند شامتاً	ظاهر النخوة إذ مات الحسن
رحمة الله عليه إنه	طلما أشجى ابن هند وأرن
استراح اليوم منه بعده	إذ ثوى رهناً لأحداث الزمن
فارتع اليوم ابن هند آمناً	إنما يقمص بالعرير السمن
لست بالباقي فلا تشمت به	كل حي بالمنايا مرتين
يا بن هند إن تذق كأس الردى	تلك فى الدهر كشيء لم يكن

وروى أنه وفد عبد الله بن عباس على معاوية .

قال : فوالله إني لنى المسجد إذ كبر معاوية فى الخضراء ، فكبر أهل
الخضراء ، ثم كبر أهل المسجد بتكبير أهل الخضراء ، فخرجت فاختت بنت
قرظة بن عمرو بن نوفل من خوخة لها فقالت : سرك الله يا أمير المؤمنين ، ما هذا
الذى بلغك فسررت له ؟

قال : موت الحسن بن على .

فقالت : إنا لله وإنا إليه راجعون .

ثم بكت وقالت : مات ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم .
فقال معاوية : نعم والله ما فعلت ، إنه كان كذلك أهلاً لأن يبكى عليه .
ثم بلغ الخبر ابن عباس رضى الله عنهما فدخل على معاوية .

فقال معاوية : علمت يا ابن عباس أن الحسن قد توفى .
قال : أذلك كبرت ؟ قال : نعم .

قال ابن عباس : والله ما موته بالذى يؤخر أجلك ولا حفرته بسادة حفرتك
ولئن أصبنا به فقد أصبنا بسيد الأوصياء فجبر الله تلك المصيبة ورفع تلك
العبرة .

فقال : ويحك يا ابن عباس ما كلمتك إلا وجدتك معداً .
ولما أتى نعي الإمام إلى البصرة وذلك في إمارة زياد بن سمية بكى الناس
فسمع الضجة أبو بكر أخو زياد وكان مريضاً : فقال ما هذا ؟ فقالت له
زوجته : مات الحسن بن علي وأظهرت الشئامة في موته ، فقال لها : اسكبي
ويحك فقد أراحه الله من شر كثير وفقد الناس بموته خيراً كثيراً يرحم الله
حسناً .

وكانت وفاته رضى الله عنه بالمدينة في يوم الخميس لليلتين بقيتا من صفر
سنة خمسين من الهجرة .

ونحتم هذا الفصل بما قاله أبو الشهداء الإمام الحسين رضى الله عنه مرثياً
الإمام على قبره :

« رحمك الله أبا محمد ، إن كنت لتناصر الحق مظانه وتؤثر الله عند
التداحض في مواطن التقية بحسن الروية وتستشف جليل معازم الدنيا بعين لها
حاقرة وتفيض عليها يداً ظاهرة الأطراف نقيه الأسرة وتردع بادرة غرت أعدائك
بأيسر المؤنة عليك ، ولا غرو فأنت ابن سلالة النبوة ورضيع لبان الحكمة فإلى

روح وريحان وحنة نعيم أعظم الله لنا ولكم الأجر عليه ووهب لنا ولكم
حسن الأسى عنه .

ثم جلس على القبر وأنشد :

وأدهن رأسي أم تطيب محاسني
وأشرب ماء المزن من غير مائه
أو استمتع الدنيا لشيء أحبه
سأبكيك ما ناحت حمامة أيكه
غريب وأكتاف الحجاز تحوطه
فلا يفرح الباقي بعد الذي مضى
وليس حريباً من أصيب بماله
بكائي طويل والدموع غزيرة
نسيك من أمسى يناجيك طيفه
وقال ابن قتيبة :

« ولم يلبث معاوية بعد وفاة الحسن إلا يسيراً حتى بايع ليزيد بالشام وكتب
ببيعته إلى الآفاق » .

وقال ابن الأثير « وكان ابتداء ذلك وأوله من المغيرة بن شعبة فإن معاوية
أراد أن يعزله عن الكوفة ويستعمل عوضه سعيد بن العاص فبلغه ذلك ، فقال :
الرأى أن أشخص إلى معاوية فأستعفيه ليظهر للناس كراحتي للولاية ، فسار إلى
معاوية وقال لأصحابه حين وصل إليه : إن لم أكسبكم الآن ولاية وإمارة لا أفعل

ذلك أبدأ ، ومضى حتى دخل على يزيد ، وقال له : إنه ذهب أعيان أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، وكبراء قريش وذود أسنانهم وإنما بقي أبناؤهم وأنت من أفضلهم وأحسنهم رأياً وأعلمهم بالسنة ، والسياسة ، ولا أدري ما يمنع أمير المؤمنين أن يعقد لك البيعة قال : أوترى ذلك يتم ، قال : نعم .

فدخل على أبيه وأخبره بما قال المغيرة ، فأحضر المغيرة وقال له : ما يقول يزيد ، فقال : يا أمير المؤمنين قد رأيت ما كان من سفك الدماء والاختلاف بعد عثمان وفي يزيد خلف فاعقد له فإن حدث بك حادث كان كهفأ للناس وخلفأ منك ولا تسفك دماء ، ولا تكون فتنة ، قال : ومن لى بهذا ؟ قال : أكفيك أهل الكوفة ويكفيك زياد أهل البصرة وليس بعد هذين المصيرين أحد يخالفك قال : فارجع إلى عملك وتحدث مع من تثق إليه في ذلك وترى ونرى .

فودعه ورجع إلى أصحابه فبادروه بالسؤال عن مصيره فأجابهم :
 « لقد وضعت رجل معاوية في غرز بعيد الغاية على أمة محمد صلى الله عليه وسلم وفتقت عليهم فتقأ لا يرتق أبدأ » .

وسار المغيرة حتى انتهى إلى الكوفة ففاوض بمهمته جماعة ممن عرفهم بالولاء والإخلاص للبيت الأموي فأجابوه إلى ما أراد ، فأوفد منهم عشرة إلى معاوية بعد أن أرشاهم بثلاثين ألف درهم وجعل عليهم عميداً ولده موسى ، فلما انتهوا إلى معاوية جندوا له الأمر ودعوه إلى إنجازهم فشكرهم معاوية وأوصاهم بكتان الأمر ثم التفت إلى ابن المغيرة ، وقال له : « بكم اشترى أبوك من هؤلاء دينهم ؟ » .

فقال : بثلاثين ألف درهم .

فضحك معاوية وقال : « لقد هان عليهم دينهم ! »^(١).

وتواطأ معاوية مع رؤساء الوفود المناصحين له أن يخطبوا ويذكروا فضل يزيد ، فلما اجتمعت عند معاوية وفود الأمصار وفيهم الأحنف بن قيس ، دعا معاوية الضحاك بن قيس الفهري ، فقال له : إذا جلست على المنبر وفرغت من بعض موعظتي وكلامي فاستأذن للقيام فإذا أذنت لك ، فاحمد الله تعالى واذكر يزيد وقل فيه الذي يحق له من حسن الثناء عليه ، ثم ادعني إلى توليته ، ثم دعا عبد الرحمن بن عثمان الثقفي وعبيد الله بن مسعدة الفزاري وثور بن معن السلمى وعبد الله بن عصام الأشعري فأمرهم أن يقوموا إذا فرغ الضحاك وأن يصدقوا قوله ، فقام هؤلاء النفر خطباء يشيدون بيزيد إلى أن قام الأحنف بن قيس ، ولم يكن من الممثلين الذين رتبهم معاوية لهذه الرواية ، فقال : « أصلح الله الأمير إن الناس قد أمسوا في منكر زمان قد سلف ومعروف زمان مؤتلف ، وقد حلبت الدهور وجربت الأمور فاعرف من تسند إليه الأمر بعدك ثم اعص من يأمرك ، ولا يغرك من يشير عليك ولا ينظر إليك ، مع أن أهل الحجاز وأهل العراق لا يرضون بهذا ولا يباعدون ليزيد ما دام الحسن حياً ، ثم أردف قائلاً « وقد علمت يا معاوية أنك لم تفتح العراق عنوة ولم تظهر عليها قعصاً ولكنك أعطيت الحسن بن علي من عهود الله ما قد علمت ليكون له الأمر من بعدك ، فإن تف فأنت أهل الوفاء وإن تغدر تغلم ، والله إن وراء الحسن خيولاً جياداً

(١) تاريخ الطبري ، والكامل لابن الأثير .

وأذرعاً شداداً وسيفاً حداداً ، وإن تدن له شبراً من غدر تجد وراءه باعاً من نصر ، وإنك تعلم أن أهل العراق ما أحبوك منذ أبغضوك ولا أبغضوا علياً وحسناً منذ أحبوهما وما نزل عليهم في ذلك غير من السماء ، وإن السيوف التي شهرها عليك مع علي يوم صفين لعلى عواتقهم والقلوب التي أبغضوك بها ليين جوانحهم .

ولما رأى الأحنف تصميم معاوية على فرض ابنه خليفة للمسلمين انبرى إليه قائلاً : « يا أمير المؤمنين ، أنت أعلمنا بليله ونهاره وبسره وعلايته ، فإن كنت تعلم أنه خير لك فوله واستخلفه ، وإن كنت تعلم أنه شر لك فلا تزوده الدنيا وأنت صائر إلى الآخرة ، فإنه ليس لك من الآخرة إلا ما طاب ، واعلم أنه لا حجة لك عند الله إن قدمت يزيد على الحسن والحسين وأنت تعلم من هما وإلى ما هما وإنما علينا أن نقول سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير »^(١)

ومن هذا نتبين أن معاوية حاول البيعة لابنه يزيد في حياة الحسن بن علي وإن كان آخرون يقولون بأن بيعة يزيد إنما وقعت بعد وفاة الحسن حتى قال أبو الفرج : « إنه سم الحسن وسعد بن أبي وقاص تمهيداً لبيعة ابنه يزيد » .

ومعنى هذا أنه قد كان لمعاوية محاولتان :

إحدهما : في حياة الحسن برغم ما تعهد به وهي إنما فشلت لمكان وجود صاحب العهد حياً .

والثانية بعد وفاة الحسن عليه السلام وهي التي تمت بأساليبها الظالمة التي

(١) الإمامة والسياسة .

عرضها أكثر المؤرخين ، فعزل مروان عن المدينة حين عجز عن أخذ البيعة على أهلها ليزيد وولى المدينة سعيد بن العاص فأظهر الغلظة وأخذهم بالعزم والشدة ولم يحبه أحد من بني هاشم ، وذهب مروان إلى المدينة غاضباً وكتب معاوية إلى عبد الله بن عباس وإلى عبد الله بن الزبير ، وإلى عبد الله بن جعفر وإلى الحسين بن علي يدعوهم إلى البيعة ليزيد وكان مما قاله للإمام الحسين رضى الله عنه : « أما بعد فقد انتهت إلى منك أمور ، لم أكن أظنك بها ، رغبة بك عنها ، وإن أحق الناس بالوفاء من كان مثلك فى خطرِكَ وشرفِكَ ومنزلتك التى أنزلك الله بها ، فلا تنازع إلى قطيعتك واتق الله ولا تردنَّ هذه الأمة فتنه ، وانظر لنفسك ودينك وأمة محمد ، ولا يستخفنك الذين لا يوقنون » .

فكتب إليه الحسين رضى الله عنه كتاباً جاء فيه « أما بعد فقد جاءنى كتابك ، تذكر فيه أنها انتهت إليك منى أمور لم تكن تظننى بها رغبةً لى عنها وأن الحسنات لا يهدى لها ولا يسدد عليها إلا الله تعالى ، وأما ما ذكرت أنه رقى إليك عنى فإنما رقاها الملاقون المشأون بالنميمة المارقون بين الجمع ، وكذب الغاؤون المارقون ، ما أردت حرباً ولا خلافاً » . . . إلى أن قال : « وقلت فيما قلت : لا ترد هذه الأمة فى فتنه ، وإنى لا أعلم فتنه لها أعظم من إمارتك عليها . الخ » .

وقدم معاوية بعد ذلك إلى المدينة وبعد ذلك إلى مكة ، ويقول ابن الأثير : « وسبقه الحسين بن علي وعبد الله بن الزبير وعبد الرحمن بن أبى بكر وابن عمر

إليها ، ولما كان آخر أيامه بمكة أحضر هؤلاء وقال لهم : إني أحببت أن أتقدم إليكم أنه قد أعذر من أنذر ، إني كنت أخطب فيكم فيقوم إلى القائم منكم فيكذبني على رءوس الناس فأحمل ذلك وأصفح ، وإني قائم بمقالة فأقسم بالله لئن ردَّ عليَّ أحدكم كلمة في مقامى هذا لا ترجع إليه كلمة غيرها حتى يسبقها السيف إلى رأسه ، فلا يبقينَّ رجل إلا على نفسه ، ثم دعا صاحب حرسه بحضرتهم فقال : أقم على رأس كل رجل من هؤلاء رجلين ، ومع كل واحد سيف ، فإن ذهب رجل منهم يردَّ عليَّ كلمة بتصديق أو تكذيب فليضرباه بسيفهما . . ثم خرج وخرجوا معه ، حتى أتى المنبر : فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : إن هؤلاء الرهط سادة المسلمين وخيارهم لا يبتز أمر دونهم ، ولا يقضى إلا عن مشورتهم ، وإنهم قد رضوا وباعوا يزيد فباعوا على اسم الله ، فباع الناس . »

وهكذا ولدت بيعة يزيد بالسيوف المشهورة على رءوس الناس ، وهل هذه هى خلافة المسلمين ، وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما أخرجه البخارى فى صحيحه عنه عليه الصلاة والسلام : « ما من وال يلى رعية من المسلمين فيموت وهو غاش لهم إلا حرم الله عليه الجنة » . وحين قال صلى الله عليه وسلم : « الخلافة بعدى ثلاثون ثم تصير ملكاً عضوداً » . وقد كملت الثلاثون سنة بخلافة الإمام الحسن عليه السلام ، ثم صارت ملكاً عضوداً .

وأختتم هذا الفصل بما قاله الشاعر الموهوب سليمان بن قتة فى رثاء الإمام الحسن :

يا كذب الله من نعى حسناً
 كنت خليلي وكنت خالصتي
 ليس لتكذيب نعيه ثمن
 -أجول في الدار لا أراك وفي
 لكل حي من أهله سكن
 بدلتهم منك ليت أنهم
 أضحوا ويني وبينهم عدن
 وكذلك رثاه الشاعر قيس بن عمر بأبيات ذكر فيها جريمة بنت الأشعث ،

وذكر فضل الإمام وجوده :

جعدة ابكينه ولا تسمى
 لم يسبل الستر على مثله
 بعد بكاء المعول الثاكل
 كان إذا شبت له ناره
 في الأرض من حاف ومن ناعل
 كما يراها يائس مرملة
 يرفعها بالسند القاتل
 يغلى بنىء اللحم حتى إذا
 وفرد قدم ليس بالآهل
 أنضجه لم يغل من آكل
 للزمن المستخرج الماحل
 أعنى الذى أسلمنا هلكه

obeikandi.com

المراجع

- ١ - القرآن الكريم
- ٢ - تفسير محمد بن علي بن محمد الشوكاني
- ٣ - سيرة النبي : عبد الملك بن هشام
- ٤ - أعيان الشيعة : السيد محسن الأمين
- ٥ - الإمام الحسن : الأستاذ باقر شريف القرشي
- ٦ - صلح الحسن : الشيخ راضي آل ياسين
- ٧ - الفتنة الكبرى : المغفور له الدكتور طه حسين
- ٨ - نور الأبصار في مناقب آل بيت النبي المختار
الشيخ سيد الشبلنجي
- ٩ - مقاتل الطالبين : أبو الفرج الأصفهاني
- ١٠ - حلية الأولياء : أبو نعيم الأصفهاني
- ١١ - الإمام الحسن : الأستاذ حسن كامل الملقاوي
- ١٢ - الإجماع في التشريع الإسلامي : السيد محمد صادق الصدر
- ١٣ - نظرية الإمامة : الدكتور أحمد صبحي
- ١٤ - حياة أمير المؤمنين في عهد النبي : محمد صادق الصدر
- ١٥ - ذخائر العقبى : محيي الدين الطبري
- ١٦ - شرح نهج البلاغة : ابن أبي الحديد

- ١٧ - طبقات ابن سعد : ابن سعد
- ١٨ - فاطمة وبنات محمد : لامنس
- ١٩ - كشف الغمة : عبد الوهاب الشعراني
- ٢٠ - الحسن والحسين : الأستاذ محمد رضا
- ٢١ - الحقائق الخفية عن الشيعة الفاطمية والإثني عشرية
للأستاذ محمد حسن الأعظمي
- ٢٢ - الحسن بن علي : للأستاذ كامل سليمان
- ٢٣ - الرياض النضرة : محب الدين الطبري
- ٢٤ - البداية والنهاية : ابن كثير
- ٢٥ - الكامل : ابن كثير
- ٢٦ - الإصابة في تمييز الصحابة : لا بن حجر
- ٢٧ - تاريخ الخلفاء للنبوطي
- ٢٨ - تاريخ الأمم الإسلامية : للشيخ الخضري
- ٢٩ - الرسول في القرآن الكريم : الأستاذ حسن كامل المطاوي
- ٣٠ - فضائل الرسول صلى الله عليه : للأستاذ حسون الدلقى
في المعقول والمنقول
- ٣١ - الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم وأهل بيته الأطهار
للأستاذ حسون الدلقى
- ٣٢ - فضائل الخمسة من الصحاح الستة : للأستاذ السيد مرتضى الحسيني